ريازة الكنائس القديمة في العراق
عند السريان المشارقة

بقلم : كوركيس عواد
ملاحظ مكتبة المتحف العراقي

١ — تمهيد

ما كاد القرن الاول للميلاد ينتهي ، حتى كانت النصرانية قد انتشرت في كثير من بقاع العراق . وتتفق المراجع التاريخية الباحثة في هذا الموضوع، على ان في طليعة الساعين لادخالها هذه الديار هو مار(١) ماري(٢) تلميذ مار أدي . وهذا الثاني كان أحد التلاميذ الاثنين والسبعين(٣) الذين سيرهم المسيح الى أقطار الارض ليبثوا فيها تعاليمه وينشروا بين أهلها مبادىء دينه .

وأول كنيسة أقيمت في العراق ، على ما ورد في بعض المراجع السريانية ، كانت كنيسة كوخي العظيمة التي أقامها ماري في « المدائن » عاصمة الدولة الساسانية في العراق . وقد أوضح المؤرخ ماري بن سليمان السبب في تسمية بيعة المدائن بكوخي ، بقوله انها « كانت أكواخ (كذا .

---

(١) مار : لفظة سريانية معناها السيد . تطلق على الاساقفة والبطاركة .

(٢) توفي ماري سنة ٨٢ للميلاد . ولا يتسع لدينا المجال لاستيعاب اخباره المختلفة . ومن ارادها فليرجع الى :

أ — ترجمته بالسريانية لمؤلف مجهول . وقد نشرها لاول مرة السيد أبلوس

Abbeloos (J. B.): Acta S. Maris. (Louvain, 1885).

وهذه الترجمة ، أعاد الاب بيجان اللعازري نشرها ضمن مجموعه السرياني النفيس في اعمال الشهداء والقديسين :

Bedjan (P.): Acta Martyrum et Sanctorum. (T. I, Paris, 1890; pp. 45-94).

ب — اخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل : لعمرو بن متي (ص ١—٢ طبعة جسمندي رومية ١٨٩٦) .

ج — اخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل: لماري بن سليمان (ص ٣ — ٥ طبعة جسمندي ، رومية ، سنة ١٩٠٠) .

د — سيرة أشهر شهداء المشرق القديسين : لادى شير (١ : ١٤ — ٤٠ الموصل ١٩٠٠) . وهذه الترجمة منقولة الى العربية عن النسخة السريانية المذكورة في المرجع (أ) .

هـ —

Labourt (J.), Le Christianisme dans l' mpire Perse sous la Dynastic Sassanide, 224—632. (Paris, 1904; pp. 12—15).

و — ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان : للقس بطرس نصري (١ : ٣٨ — ٤٢ ؛ الموصل ١٩٠٥) .

ز — النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية : للاب لويس شيخو اليسوعي (ص ٧٥ ؛ بيروت ١٩١٢) .

ح — تاريخ كلدو وآثور : للمطران أدي شير (٢ : ٢ — ٦ ؛ بيروت ١٩١٣) .

(٣) أنظر : انجيل لوقا (الفصل العاشر) .

والصواب أكواخا) لأكرة(٤) ماردنشـاه رئيس أقطيسفون(٥)، ولما شفي مار ماري ابنته، استوهبها منـه ، ومـار أبا وسـعها بمـال عبدالمسـيح الحـيرى ... »(٦) .

ثم أخذت حركة تشييد الكنائس في العراق تتسع وتنشط عاما بعد عام . فلم يكن دير ولا قرية ولا مدينة خاليا من كنيسة أو أكثر تسمى باسـم قديس ، أو يطلق عليها تسـمية تذكارية دينيـة أخرى .

٢ ـ حدود بحثنا

شهد العراق أسـاليب مختلفـة من ريازات الكنائس القديمة . وأشهرهـا ما كان متبعا عند السريان المشارقة ، وهم الذين يطلق عليهـم اليوم اسم « الكلدان » و « النساطرة » ، ومـا كان متبعا عنـد السريان المغـاربة ، وهـم المعروفون اليوم بالسريان واليعاقبة . وسنقصر بحثنـا في هـذا الموضوع على طراز كنائس المشارقة دون غيرها .

٣ ـ المراجع في ريازة الكنـائس في العراق

لما لم ينته الينا مخططات قديمة ولا أوصـاف دقيقة واضحة المعالم ، تفصل الكلام على ما كانت عليه هندسة الكنائس العراقية القديمة ، تحتم علينا أزاء هذا النقص في المدونات، ان نلجأ الى التلميحات والاشارات المتعلقة بهذا الشأن ، وهذه تناثرت في مواطن متعددة من المؤلفات السريانية والعربية(٧) والى آثار الكنائس القديمة القائمة في وقتنا هذا ، والتي اندرست واختفت بقاياها تحت الثرى .

وعلى هذا الاساس يمكننا تقسيم مراجعنا في هذا الصدد الى قسمين رئيسين :

الاول : المراجـع المـدونة وبينهـا القـديم والحديث ، وأهمها :

(أ) كتاب الرؤساء للمرجي(٨) . وقـد كان

(٤) الاكرة ، واحدهـا الاكار ، لفظة سريانية الاصل معناهـا الفلاح او الزراع . وقد عربت وشاع استعمالها في العصر العباسي ، راجع كتب اللغة ومقالة احمد باشا تيمور : تفسير الالفـاظ العباسية من نشوار المحـاضرة (مجلـة المجمع العـلمي العربي بدمشق ٢ (١٩٢٢) ص ٢٩٠ ـ ٢٩١) .

(٥) تعريب لفظة (Ctesiphon) . وقد اختلف المؤرخون والبلدانيون العرب في تعريبهـا ، فقالوا : اقطيسفون ، قطيسفون ، طيسفون ، طيسبون ، طسفون ، طسفونج ، طيسفونج ، طوسفون .

(٦) ماري بن سليمان (ص ٥) .

(٧) ذكر الاسـتاذ حبيب زيات (الـديارات النصرانية في الاسلام ص ٥) ان « كتـاب الديارات » للشابشتي ، « كان منه نسخة ثمينة مزوقة (Illustrée) وقف عليها شمس‌الدين محمد ابن طولون الدمشقي في القرن العاشر للهجرة » . ولكن هذه النسخة المزوقة لا يعلم مصيرها اليوم . ولو وجدت لاستخرجنا منها فوائد ثمينة تتعلق بابنية الديارات وشؤونها الاخرى .

(٨) هـذا الاثر التاريخي من اجل المراجع في تاريخ بقعة عراقية ، نعني بها « دير بيث عابي » الذي كان قائما عامرا في ما مضى شمالي جبل العقر (في قضاء عقرة بلواء الموصل) . وقد ألفه باللغة السريانية توما المرجي أسقف المرج نحو سنة ٨٤٠ م . وهذا الكتاب ، حققه ونشـر نصه مشفوعا بترجمة انكليزية ومقـدمات وتعليقات ثمينة ، المستشرق الذائع الصيت (بج) بعنوان : Budge (E. A. W.): The Book of Governors, being the Historia Monastica of Thomas Bishop of Marga, A. D, 840. (2 vols., London, 1893). وقد اعاد نشره ، بنصه فقط ،الاب بيجان(ليبسك ١٩٠١)

جل اعتمادنا عليه ، وعلى ما حققه ناشره العلامة في مقدمته وفي تضاعيف حواشيه عليه(٩) .

(ب) وكتاب المجدل ، لكل من ماري بن سليمان وعمرو بن متى . وقد مرت الاشارة اليهما في حاشية من هذا المقال .

(ج) وعلى مقال للخوري سليمان صائغ ، عنوانه « كوخيَ المدائن : لمحة في زيارة الكنائس وهندامها عند المشارقة(١٠) » . وعلى نبذة أخرى له في أحد مؤلفاته(١١) .

(د) وعلى ما كتبه بروخوس (Brockhaus) في دائرة معارف اللاهوت والكنيسة البروتستانية(١٢) .

(هـ) وعلى ما دونه هرتسفلد في الفصل الخاص بالبنايات النصرانية في الموصل ، من كتاب « رحلة آثارية في العراق(١٣) » .

الثاني : المراجع الآثارية : ونعني بها بنايات الكنائس والديارات القديمة في العراق ، وهي صنفان :

أولهما : البنايات القديمة التي ما زالت قائمة الى وقتنا هذا ، وان كان قد دخل عليها ترميمات واصلاحات لمت شعثها . وأغلبها يرى اليوم في مدينة الموصل ، أو بعض القرى والديارات المجاورة لها .

٤ ـ أقدم الكنائس المشرقية القائمة في العراق

(أ) كنيسة الطاهرة للكلدان : وتعرف بالطاهرة التحتانية تمييزا لها عن كنيسة الطاهرة الفوقانية وهي في شمال شرقي مدينة الموصل ، على مقربة من باش طابية عند ضفة دجلة . وعندنا ان هذه الكنيسة من أنفس الآثار العمارية التي تمثل لنا ما كانت عليه ريازة الكنائس القديمة عند السريان المشارقة في العراق (انظر مخطط هذه الكنيسة في الشكل ـ ١)(١٤) . ويذهب بعض الباحثين(١٥) الى أن هذه الكنيسة قد كانت في ماضي الزمان كنيسة الدير الاعلى(١٦) ، وهو من أشهر الديارات القديمة في العراق وأجلها شأنا .

---

(٩) راجع مقدمة المجلد الاول (ص ٥٠ ـ ٥٤) وحواشي الصفحة ٤٣٠ ـ ٤٣١ من المجلد الثاني من طبعة بيج .

(١٠) مجلة النجم (٦ « الموصل ١٩٣٤ » ص ٥٤ ـ ٥٨) .

(١١) يزداندوخت الشريفة الاربيلية (الموصل ١٩٣٤ ، ص ١٨١ ـ ١٨٢) .

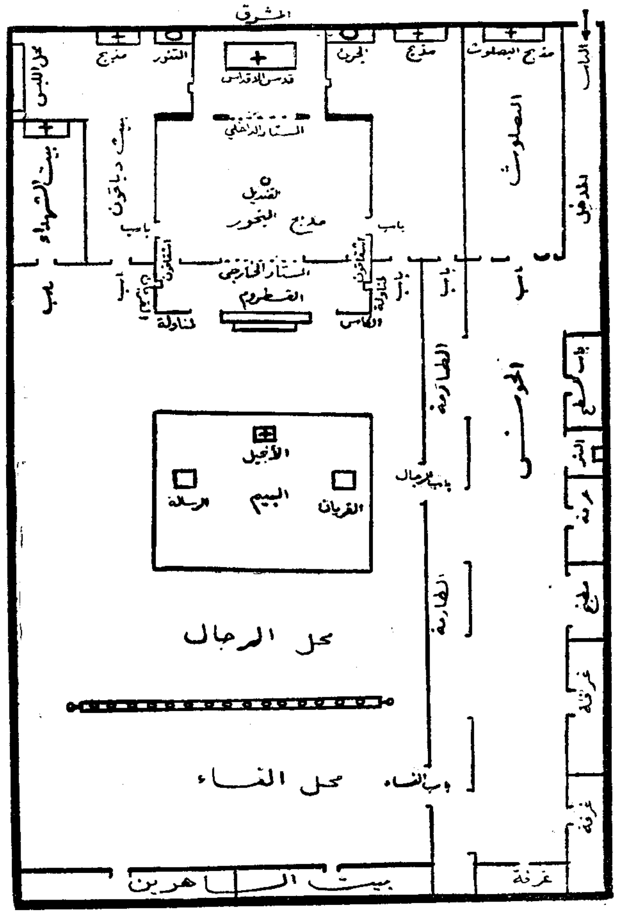
(١٢) Herzog: Encyclopädie fur Protestanische Theologie und Kirche (المجلد الثاني ، ليبسك ١٨٧٨ ، مادة : Baukunst)

(١٣) Herzfeld (E.): Archäologische Reise im Euphrat-und Tigris-Gebiet. (Bd. II, Berlin, 1920; pp. 289-303; Bd. III, 1911; pl. CIII, CVII-CX).

(١٤) أود ان أشكر الاستاذ السيد عزيز بطرس ، على عنايته بوضع مخطط هذه الكنيسة وسماحه لي بنشره في هذا البحث .

(١٥) تاريخ الموصل للخوري سليمان صائغ (١ : ٢٨٨ ـ ٢٩٠) ، ومجلة النجم (١ : ١٤٨ ـ ١٤٩ ؛ ٥ : ٢٦ ؛ ٧ : ٧٣ و ١٦٧) .

(١٦) وصفنا هذا الدير وخزانة كتبه في مجلة سومر (٢ (١٩٤٦) ص ١٢٣ ـ ١٢٤) .

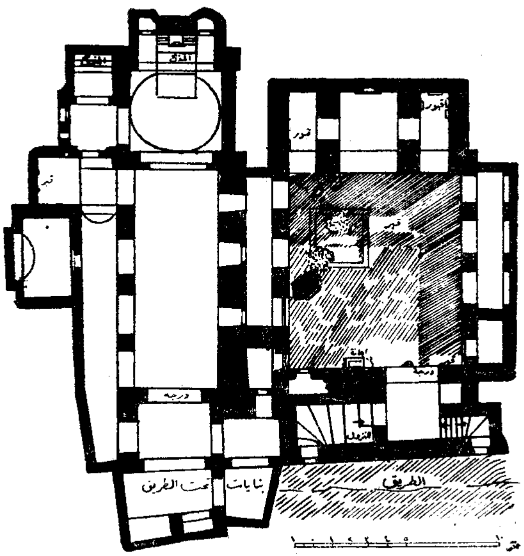


الشكل ـ ١ ـ مخطط كنيسة الطاهرة للكلدان بالموصل (عن عزيز بطرس) •

وقد عرف بكونه مركزا للطقوس الدينية الكنسية عند المشارقة • لقد زال بناء هذا الدير زوالا نهائيا ولم يبق منه سوى الكنيسة المذكورة التي تلاعبت بها يد الدهر ، فجرى تجديدهـا على يد الحـاج حسين باشا الجليلي والي الموصل، سنة ١٧٤٣م(١٧)•

(ب) كنسة شمعون الصفا : (انظر مخططها في الشكل ٢) تقع في محلة مياسة بالموصل • وهي

(١٧) تاريخ الموصل لصائغ (١ : ٢٨٨ـ٢٨٩) •



الشكل ـ ٢ ـ مخطط كنيسة شمعون الصفا بالموصل (عن هرتسفلد)

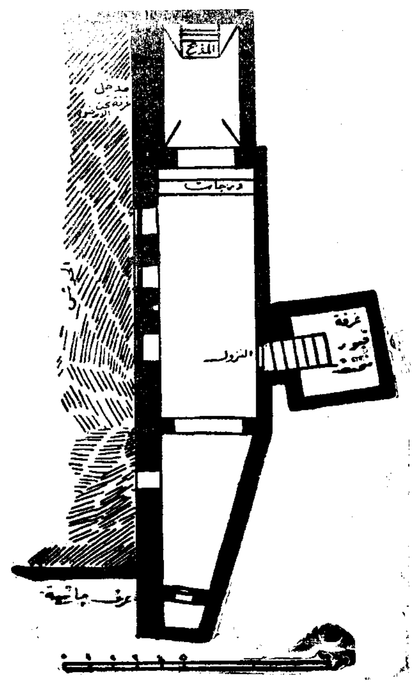
من أقدم كنائس هذه المدينة • وقد بنيت على اسم مار بطرس زعيم الحواريين الذي عرف بالصفا • ولا يمكننا تعيين زمن تشييدها بوجه التحقيق • الا ان وضعها الحالي ، أعني هبوط مستوى أرضها عن سائر المحلة المحيطة بها، يحملنا على الايقان بقدمها • وان هذه الكنيسة كالديماس ، ينزل اليها بعـدة درجات • ويذهب بعض الباحثين ، الى أن تشييدها قد يرقى الى المئة الثالثة للميـلاد(١٨) • والذي يستبان من طراز بنـاء أبواب الهيكل في هـذه الكنيسة ، وباب بيت الشهداء (١٩)، والزخـارف الرخامية فيها ، انها لا تتأخر عن المئة الثالثة عشرة للميـلاد •

(١٨) النجم (١ (١٩٢٩) ص ١٤٩) •

(١٩) سنذكر مشتملات الكنيسة المشرقية القديمة ، في ما يأتي من هذا المقال •

لقد أجرى على هذه الكنيسة بمرور السـنين ترميمات وصيانا تمختلفة كانت العامل فى بقائها قائمة الى وقتنا هذا ، منها الترميم الذى حصل سنة ١٨١٧ وسنة ١٩٠٤(٢٠) وسنة ١٩٣٦(٢١) •

(ج) كنيسة مارفثيون ، ويقال أيضـا بثيون (انظر مخططها فى الشكل ٣) وهى من الكنائس



الشكل ــ ٣ ــ مخطط كنيسة
مار بثيون بالموصل (عن هرتسفلد)

القديمة العهد فى الموصل ، تقع قرب محـلة شهر سوق « جهار سوق » • وقد بنيت على اسم الشهيد بثيون (St. Pythion) الذى قتل سـنة ٤٤٧م •

(٢٠) النجم (١ : ١٤٩)

(٢١) النجم (٨ : ١٥٤ ــ ١٥٥) •

ويشتمل بناؤها على دار صـغيرة ومذبح وهيـكل واحـد(٢٢) أخذ يتهدم •

ولسنا فى مقام حصر كل الكنائس القديمـة العهد • ففى الموصل مثلا من هذه الكنائس غير ما ذكرنا • ولكن بناء بعضها لم يبق على ما كان عليه فى السابق ، لانها انهدمت وشيدت تشييدا جديدا ، فضربنا عن ذكرها صفحا •

* * *

ثانيهما : البنـايات القديمـة التى أبادتها يد الحدثان فقوضت أركانها ودكت جدرانها وجعلتها أثرا بعد عين • ومثـل هـذه الكنائس المندرسـة لا يمكن الوقوف على مايوضح سابق أمرها ويفصح عما استبهم من ريازتهـا الا بالحفر والتنقيب فى أطلالهـــا •

والذى نعلمه ، انه لم يجر شىء من التنقيب فى ما درس من هاتيك الكنائس الا فى ثلاث : واحدة فى المدائن ، واثنتين فى الحيرة •

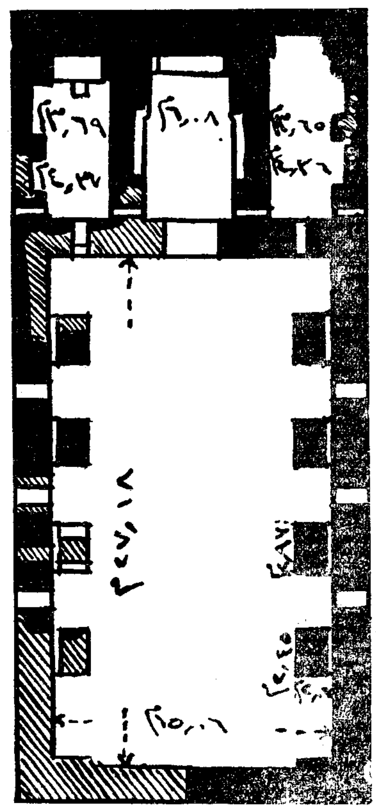
٥ ــ كنيسة المدائن

كانت البعثة الالمانيـة التى نقبت فى طيسفون سنة ١٩٢٨ ــ ٢٩(٢٣) ، قـد كشفت النقاب عن

(٢٢) النجم (١ : ٢١٥) •

(٢٣)
Reuther (O.) : Die Ausgrabungen der Deutschen Ktesiphon Expedition im Winter 1928-29. (P. 11 ff.).
وتقرير عن الحفريات فى العراق لموسم سنة ١٩٢٨ــ١٩٢٩ (مطبعة الحكومة ــ بغداد ١٩٣٠ ؛ ص ٩) •

آثار كنيسة فيها . وما من شك فى ان هذه الكنيسة من أقدم آثار النصرانية فى العراق وأبعدها عهدا . غير ان البعثة لم يتح لها فى التنقيب التوغل والوصول الى نتيجة كافية تؤهلها لوضع مخطط شامل لهذه الكنيسة المكتشفة . والمخطط الذى صنعته البعثة للكنيسة المذكورة ، يراه القارىء فى الشكل (٤) .



الشكل ــ ٤ ــ مخطط الكنيسة
المكتشفة فى المدائن (عن أسكار رويتر)

هذا ، والمجال متسع لاستئناف الحفر فى هذه البقعة لاستثبات جميع الاقسام والمشتملات التى تتألف منها الكنيسة .

وقد ذهبت البعثة الى ان هذه الكنيسة ترقى الى منتصف او الى نهاية المائة السادسة للميلاد . ودليلها فى هذا الرأى ، هو بعض الآثار التى عثرت عليها هناك ، وأهمها :

تمثال رجل ، بحجم يساوى ثلاثة أرباع الحجم الطبيعى ، ضاع رأسه ويداه ورجلاه ، وعليه ملابس ملونة . وتنبىء حاله انه قد يكون تمثال قديس ذى صلة بالكنيسة ، أعنى ان الكنيسة خصصت به أو بنيت على اسمه .

ومما وجدته قطع ملونة من الجبس كانت حول هذا التمثال . وكذلك قطعة من كتابة سريانية فيها اشارة الى « اله ابراهيم واسحق ويعقوب » . وهذه القطعة وجدت فى صدر البيت الاوسط عند الحد الشرقى للكنيسة (انظر المخطط فى الشكل ٤) .

وقد وجدت البعثة ان هذه الكنيسة قد أصلحت بنايتها فى عصر متأخر ، ربما يكون فى العصور الاسلامية . من ذلك ان الاعمدة فيها غلفت بغلاف بنائى تمكينا لها ، فصغر بذلك حجم الكنيسة .

ومما عثرت عليه أيضا ، أسس قديمة تحت أسس الكنيسة الحالية . وقد عللت البعثة وجود هذه الاسس بأنها كانت لكنيسة أخرى أقدم عهدا منها . أو أنها أسس كنيسة بوشر بنيانها ولم يفرغ منها . ومهما يكن من أمر ، فان توسيع مدى الحفر فى هذه البقعة وفى ما يجاورها ، قد يكشف النقاب عن حقيقة هذه البقايا القديمة العهد .

ولسنا نعلم علم اليقين ، أى كنيسة هذه التى أجرى التنقيب فيها . فان المدائن ، وهى مركز جثالقة(٢٤) النصارى المشارقة قبل انتقالهم الى بغداد أيام الخلافة العباسية ، قد كانت تحتوى على كنائس عديدة . فذكر مؤلف تقويم الكنيسة الكلدانية النسطورية فى عرض كلامه على مدينة المدائن ان الكلدان النساطرة(٢٥) فيها ، « كان لهم داخل البلد (المدائن) احدى وعشرون كنيسة ، وخارج البلد ستون كنيسة(٢٦) » . ويا ليت مؤلف هذا التقويم ـ وهو رجل نسطورى مجهول ـ ذكر أسماء هاتيك الكنائس الداخلة والخارجة التى اندثرت جميعها باندثار المدائن ذاتها .

وذكر ابن العبرى فى تاريخه ، ان كسرى بعد محاربته موريقى ، ملك الروم ، « بنى هيكلين للنصارى بالمدائن وجعل أحدهما باسم السيدة والآخر باسم مار سرجس الشهيد(٢٧) » .

ولعل هذه الكنيسة الثانية ـ أعنى كنيسة مار سرجس ـ تحولت ديرا فيما بعد . فان القفطى وابن أبى أصيبعة ، ذكرا فى ترجمة جبرائيل بن بختيشوع الطبيب المشهور ، المتوفى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) فى أيام خلافة المأمون ، أنه « دفن فى دير مار سرجس بالمدائن . ولما عاد المأمون من بلد الروم ، دفع الوصية (أى وصية جبرائيل) الى بختيشوع ابنه ، فعمد بختيشوع الى الدير فعمره وجمع له رهبانا وأجرى عليهم الجرايات والنفقات(٢٨) » .

ولكن فى الاخبار التاريخية ما يشير الى أن مار مارى بنى بالمدائن « البيعة(٢٩) الكبرى(٣٠) » . فهذه ولا ريب غير الكنيستين اللتين نقلنا خبريهما آنفا .

وهنالك بالمدائن كنيسة أخرى عرفت بكنيسة اسفانبر(٣١) . واسفانبر هذه هى احدى مدائن

(٢٤) الجثالقة ، واحدها الجاثليق (Catholicos) هو الرئيس الدينى الاعلى عند النساطرة فى ديار الشرق . ودونه المطران فالاسقف فالقس فالشماس .

(٢٥) النساطرة ، هم اتباع نسطور (**Nestorius**) بطريرك القسطنطينية (٤٢٨ ـ ٤٤٠ م) الذى انشق بآرائه عن تعاليم الكنيسة القديمة ، فتبعه خلق كثير من نصارى الكلدان فى الشرق وعرفوا بالنساطرة وبالنسطورية ايضا . وقد ورد فى هذا المقال لفظ « المشارقة » أو « السريان المشارقة » فنحن نريد بهم « الكلدان » عموما قبل انتشار النسطرة بينهم وبعدها .

(٢٦) تقويم قديم للكنيسة الكلدانية النسطورية (ص ٢٢ بتحقيق الخورى (المطران) بطرس عزيز . بيروت ١٩٠٩) .

(٢٧) تاريخ مختصر الدول لابن العبرى (ص ١٥٤ طبعة صالحانى ، بيروت ١٨٩٠) .

(٢٨) اخبار العلماء باخبار الحكماء للقفطى (ص ١٤٢ طبعة لبرت فى ليبسك سنة ١٩٠٣) وعيون الانباء فى طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة (١ : ١٣٥ ـ ١٣٦) .

(٢٩) البيعة ، بكسر الباء ، هى الكنيسة .

(٣٠) مارى بن سليمان (ص ٤) وعمرو بن متى (ص ٨) .

(٣١) مارى بن سليمان (ص ٤٩) وعمرو بن متى (ص ٣٨ و ١٢٨) .

كسرى السبع على ما هو معروف فى كتب البلدان(٣٢) •

ووقفنا على ذكر كنيسة أخرى فى المدائن هى المعروفة ببيعة الأكواخ ، ذكرها عمرو بن متى فى ترجمة الجاثليق اليشع(٣٣) وكأنها كنيسة كوخى العظمى التى ذكرناها فى أول بحثنا •

وهذا الذى ذكرناه من كنائس المدائن هو غير كنيسة دير قنى(٣٤) الذى يعد من أشهر ديارات المدائن ، بل من أشهر ديارات العراق على الاطلاق • وهذه الكنيسة أقامها مار مارى ، وبعد وفاته دفن فيها عن يمين المذبح •

٦ ــ كنيستا الحيرة

اشتهرت الحيرة ، وهى عاصمة دولة اللخميين فى العراق ، بدياراتها الكثيرة التى طالما تغنى بذكرها الشعراء ، وأشاد بوصفها المؤرخون والبلدانيون الاقدمون ، وتطال الى بقاياها الآثاريون والمنقبون من أبناء عصرنا •

واشتهرت ايضا بكنائسها المتعددة البديعة البنيان • حتى أفرد لها هشام بن محمد الكلبى (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) مؤلفا قائما بذاته اسماه « كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات »(٣٥) وهو مفقود ولعله كتاب « ديارات الحيرة » الذى نقل منه ابن فضل الله العمرى فى كلامه على دير الاسكون(٣٦) •

كذلك عنى غير واحد من المؤرخين والبلدانيين بوصف ديارات الحيرة وكنائسها ، لو جمع بعضه الى بعض ونسق لقام منه مجلد حسن فى هذا الموضوع • فممن ذكر هذه الديارات والكنائس : أبو الفرج الاصفهانى فى كتاب الاغانى ، والشابشتى فى كتاب الديارات ، والبكرى فى معجم ما استعجم ، وياقوت فى معجم البلدان ، وابن عبد الحق فى مراصد الاطلاع ، وابن فضل الله فى مسالك الابصار ، وغيرهم ممن يضيق المقام بذكرهم •

ذكر ياقوت فى كلامه على « دير نجران » ، انه « كان أهل ثلاث بيوتات يتبارون فى البيع ، وربها أهل المنذر بالحيرة ، وغسان فى الشام ، وبنو الحارث بن كعب بنجران • وبنوا دياراتهم فى المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والغدران،

(٣٢) معجم البلدان (مادة اسفانبر ١ : ٢٤٦ طبعة وستنفلد) •

(٣٣) عمرو بن متى (ص ٣٨ و ٤٠) •

(٣٤) راجع دير قنى : موطن الوزراء والكتاب ومعقل المسيحية فى العراق « لميخائيل عواد » (المشرق ٣٧ (١٩٣٩) ص ١٨٠ ــ ١٩٨ ، المراجعة ص ١٨٤) •

(٣٥) الفهرست لابن النديم (ص ٩٧ طبعة فلوجل، ص١٤٢ طبعة مصر) ، ومعجم الادباء (٧ : ٢٥٣ طبعة مرجليوث) •

(٣٦) مسالك الابصار (١ : ٣١١ بتحقيق احمد زكى باشا) •

ويجعلون فى حيطانها الفسافس(٣٧) وفى سقوفها الذهب والصور »(٣٨) •

بيد ان تلك الكنائس والديارات قد عفت آثارها وزال ذكرها من بين الناس ، وظلت بقاياها كامنة قرونا طوالا بين طيات الثرى • حتى هيأ الله لهـا بعثة آثارية اوفدتهـا جامعة اكسفورد فى خريف سنة **١٩٣١** للتنقيب فى اطلال الحيرة ، وعلى رأسها العالمان الآثاريان ريتلنكر (Gerald Reitlinger) ورايس (D. Talbot Rice) • فعثرا فى جملة ما عثرا عليه ، على بقايا كنيستين قديمتين من كنائس الحيرة ، ورد وصفهمـا فى ما نشـر عن اعمـال التنقيب هناك(٣٩) •

وقد تم التنقيب فى احد عشـر تلا من تلول منطقة الحيرة ، فرقم المنقبان كل تل منهـا برقم • والكنيستان المشار اليهما آنفا عثر على أولاهما فى التل الخامس ، والثانية فى التل الحادى عشر •

(٣٧) الفسافس ، واحدتهـا الفسيفساء ، وهى المعبر عنها فى الانكليزية بلفظة (Mosaic) : « فصوص صغيرة تكون اما من الزجـاج الملون ، وبعضه شـاف كالجامات ، واما من الحجر المعجون تغشى بالذهب ويطبق عليها زجاج رقيق • ثم يعجن الشيد ، اى الجص ونحوه بالصمغ العربى ، ويبسط على الحائط ، وترصع فيه هذه الفصوص على اشكال شتى ونقوش محكمة ، تتألف منها صـور ورسوم وكتـابات تتلألأ بالذهب والاصبـاغ الزاهية » (حبيب زيات : الخزانة الشرقية ٢ (بيروت ١٩٣٧) ص ٨١) •

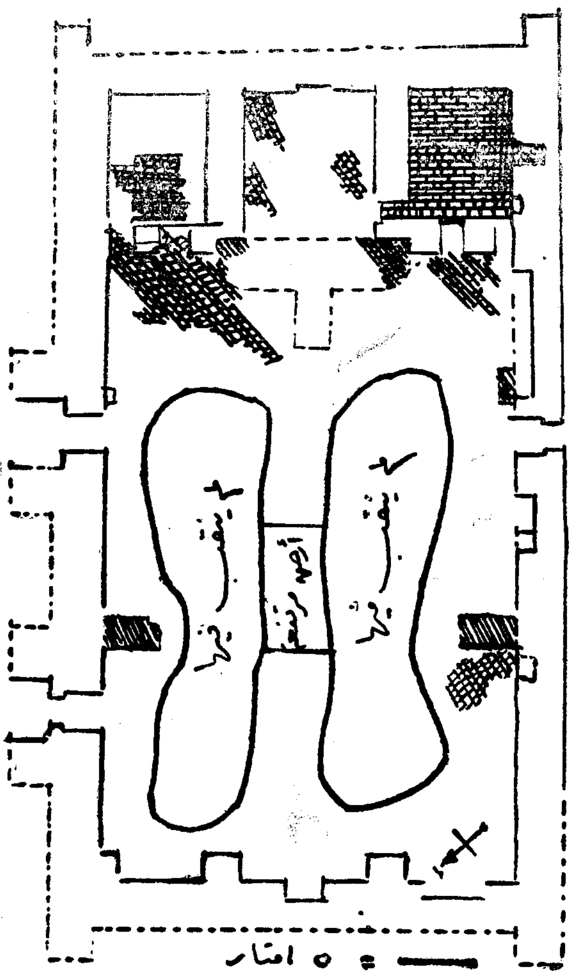
(٣٨) معجم البلدان (٢ : ٧٠٣) •

(٣٩) راجع فى هذا الصدد مقالات رايس الثلاث :

Rice (D.T.): The Oxford Excavations at Hira, 1931. (Antiquity, Sept., 1932; pp. 276—291).

أ ــ التل الخامس :

ظهر من التنقيب فيه ان بقعته كانت تشتمل على كنيسة كبيرة ذات مخطط قائم الزوايا ، قبلتها متجهة الى الجنوب الشرقي (انظر مخططها في الشكل ٥) •



الشكل ــ ٥ ــ مخطط الكنيسة المكتشفة فى التل الخامس (عن تلبت رايس)

Hira: (Journ. of the Royal Central Asian Soc. (Vol. XIX, 1932; pp. 254—268).

The Oxford Excavations at Hira. (Ars Islamica, Vol. I, 1934; pp. 51—73).

وراجع ايضا يوسف غنيمة : الحيرة المدينة والمملكة العربية (بغداد ١٩٣٦ ، ص ٤٩ ــ ٥٣) • وما أورده فى هذا الفصل مستخلص من بعض المراجع المذكورة اعلاه •

واتضح من البحث فى بقايا هـذه الكنيسة ، وكنيسة الحيرة الثانية ، انهما تعودان الى المائة الثامنة او التـاسعة للميلاد ، وانهما تماثلان كل المماثلة مخطط كنيسة قطيسفون التى قدمنا الكلام عليها فى مطاوى بحثنا •

ولكل من هذه الكنائس الثلاث ، ثلاثة بيوت للصلاة أى مصليـات (Chapels) فى نهاياتهـا الجنوبية الشرقية ، يفصلهـا عن الجسم الرئيس للبناية ، ذى المخطط القائم الزوايا ، دعائم مصمتة •

وعندنا ، ان هـذه التى دعيت ببيوت الصلاة وبالمصليات الثلاثة ، ما هى الا « مذبح الكنيسة » وهو الاوسط ، يجاوره من اليمين « بيت العماذ » ومن اليسار « بيت دياقون » و « بيت الشهداء » • وسنوضح هـذه التسميات فى الـكلام على ريازة الكنيسة الكلدانية القديمة فى هذا البحث •

وجدران الكنيسة فى هذا التل الخامس ، من اللبن ، وقـد زخرفت من داخلهـا بالبيـاض (White Lime-Plaster) • امـا ارض هيكل الكنيسة والبيوت الجانبية فقـد كانت من الآجر المنضد بشكل توريبى (Diagonally) أى مائل أو منحرف • ومقـاس الآجرة الواحـدة منـه ٢٦ × ٢٦ × ٥ سم •

وقد كانت جدران البيت الاوسط التى فى الحد الجنوبى الشرقى مزوقة ، مع ان البيتين اللذين عن يمينها وشمالها ، وكذلك هيكل الكنيسة الرئيس ، كانت كلهـا عارية عن أى تصوير او تزويق •

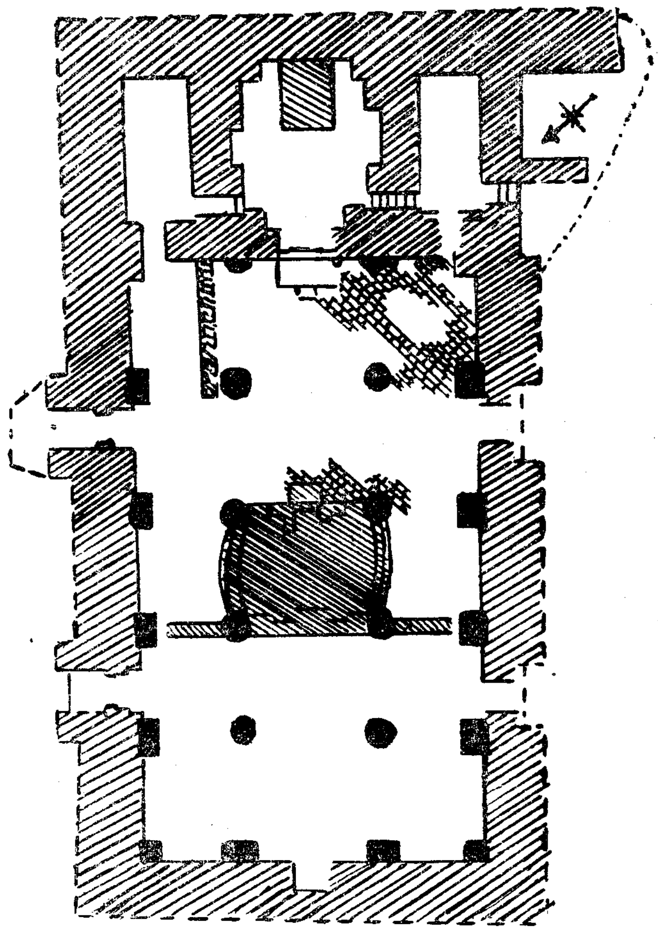
ولا شك ان هـذا البيت الاوسط ـ وفيـه قدس الاقداس ـ جدير بالعناية والزخرفة أكثر من أى قسم آخر من الكنيسة •

أما تصاوير الكنيسة ، فالذى وجد منها كان فى غاية التشعث • وهى تعود الى دورين : قديم وهو السفلى ، وجديد وهو العلوى • فالتى من المستوى العلوى ذات صبغة نصرانية بحتة • فقد وجد هناك جملة قطع عليها صلبـان أو اجزاء من صلبـان • والوانها رائقة عجيبة الصنع تذكرنا بتلك التصاوير والزخارف التى وجدت فى آثار سامراء •

واما التصاوير التى من المستوى السفلى ، فيبدو من مظهرها وطرازها انها ذات صبغة ساسانية ومهما يكن من أمرها فانهـا ولا شك من أقدم مخلفات الفن النصرانى فى العراق •

ب ـــ التل الحادى عشر :

نقب الجانب الشمالى فقط من هـذا التـل ، فكشف فيه عن بقايا كنيسة ذات مخطط شبيه بالتى وجدت فى التل الخامس على ما أسلفنا • وقد ظهر ان سقف هذه الكنيسة كان فى الاصل يرتكز على اقواس من الآجر ، تقوم على دعائم من الآجر ايضا • وهذه الدعائم تقسم ارض الكنيسة الى ثلاثة اقسام متوازية ، اكبرها هو الاوسط ، ويوازيه من اليمين والشـمال جناحـان (انظر المخطط فى الشكل ٦) • وهنالك عضادات تتصل بالجدارين الجانبيين وعلى هـذه العضادات ترتكز الاقواس السقفية •



الشكل ــ ٦ ــ مخطط الكنيسة المكتشفة فى التل الحادى عشر بالحيرة (عن تلبت رايس)

اما أرض الكنيسة ، فكانت مبلطة بالآجر ذى المقاسات ٢٠ × ٢٠ × ٤ سم • وقد نضد بشكل توريبى على غرار كنيسة التل الخامس •

وفى منتصف القسم الاوسط ، دكة مرتفعة من اللبن ، مملطة بالجبس ، يرقى اليها بدرجتين • وكانت المقاعد مرتبة فى كلا جانبيها بشكل مقوس (انظر المخطط ٦) •

وما هذه الدكة المرتفعة التى فى وسط الهيكل ، الا « البيم» الذى سيرد ذكره فى هذا المقال •

لقد جرت فى هذه الكنيسة ترميمات فى أزمنة متفاوتة ، ويبدو كل ترميم منها مختلفا عما سبقه •

* * *

والذى يلاحظ عموما من تخطيط هاتين الكنيستين ، انهما من الكنائس الملكية (باسليقات Basilics) الطويلة • فيتألف داخل كل منهما من ثلاثة مستطيلات متجاورة ، الاوسط يكون محور الكنيسة ، والاثنان الآخران يحاذيان المحور من كلتا جهتيه ، فهما كالجناحين له (انظر المخططين فى الشكل ٥ و ٦) •

وهذا الطراز مألوف اليوم فى كبريات الكنائس المشرقية •

ومما تميزت به هاتان الكنيستان عن كثير من الكنائس المشرقية القديمة التى نراها اليوم فى العراق ، انهما كانتا منقوشتين بالظلوم(٤٠) •

والذي يبدو من طراز هاتين الكنيستين، ان صدرهما وجنباتهما ليست على شكل دائرة ولا مقوسة• كما ان ابواب الكنيسة من جانبيها وليست في آخرها•

---

(٤٠) الظلوم : واحدها الظلم (بفتح اوله وثانيه) تعريب لفظه (Fresco) الانكليزية و (Fresque) الفرنسية • وتفسيرها صورة منقوشة على حائط حديث الطلاء وتلك النقوش محلولة فى ماء الكلس • قال فى تاج العروس (٨ : ٣٨٦) « بيت مظلم ، كمعظم ، مزوق بالتصاوير أو مموه بالذهب والفضة » •

ولم يعثر فى كنيستى الحيرة على مذابح • ومما يلفت الانظار ان هاتين الكنيستين تنتهيان بمربعات على غرار ما يرى في هياكل بابل وآشور(٤١) • وفى هذا دلالة على تأثير الفن والريازة الوثنية التى سبقت الميلاد ، فى الحقبة النصرانية فى العراق •

٧ ـ اتجاه كنائس المشارقة وتخاطيطها (٤٢)

اذا استقرينـا اتجـاه الكنـائس المختلفة التى للسريان المشارقة ، سواء أكانت فى الديارات أم فى غيرها ، ألفيناها تتجه فى قبلتها نحو الشرق •

واذا رجعنـا الى المؤلفات التاريخية والطقسية وغيرها مما بيدينا بالسريانية والعربية ، واستخلصنا منهـا صفة ما كانت تتألف منه الكنائس المشرقيـة القديمة ، أمكننا فى الاخير وضع مخطط لمشتملات هاتيك الكنائس، مع ذكر كل قسم منها باسمه الذى كان يعرف به (انظر الشكل ٩) •

تتألف الكنيسة بوجه العموم من ثلاثة اقسام رئيسة تساير محور طولهـا (انظر المخططات فى الاشكال ٧ ـ ٩) • وهذا الوضع يؤيده ما وجد فى

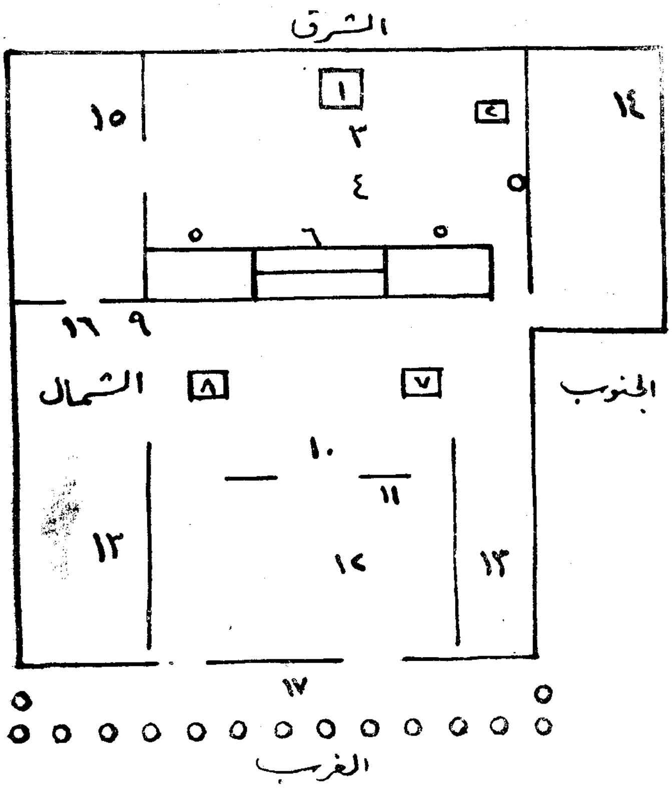
(٤١) كما فى معبد انواداد (Anu-Adad) فى آشور • راجع :

L. Speleers: Les Arts Antérieure Ancienne (Bruxelles, 1926; Fig. 350, pl. XVI.

ففيه مخططات معابد اخرى مختلفة • وراجع للمؤلف نفسه :

Les Fouilles en Asie Antérieure (Liege, 1928; pl. I, IX, XIII, XIV).

(٤٢) تفضل بمراجعة هـذه النبذة حضرة الاب بولس شيخو ، مدير المدرسـة الاكليريكيـة الكلدانيـة بالموصل •



الشكل ـ ٧ ـ مخطط كنيسة على الطقس الكلدانى القديم (عن بج)

كنيستى الحيرة وكنيسة قطيسفون التى مر بنـا وصفها فى مطاوى هذا البحث •

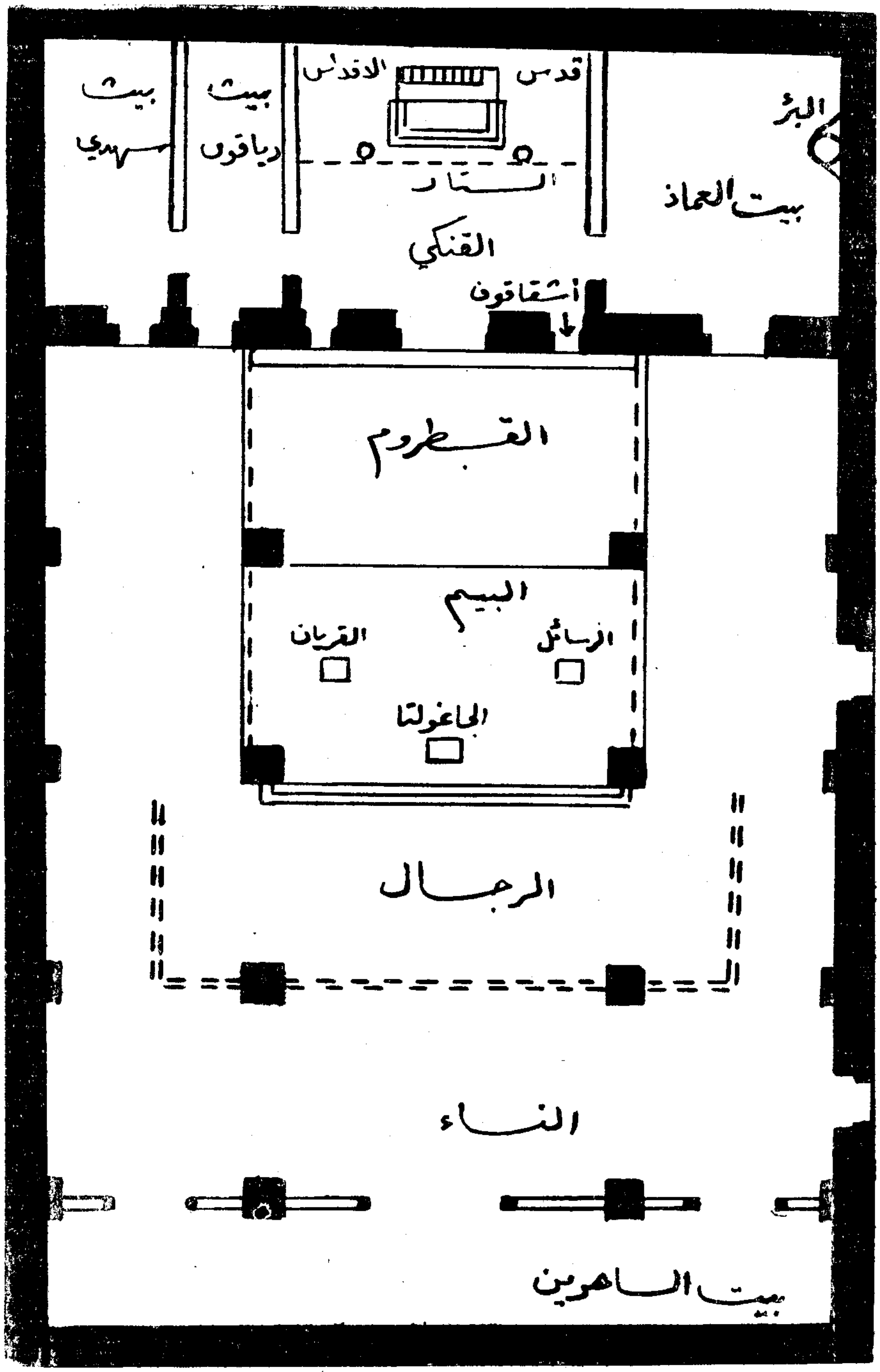
ففى الحـد الشـرقى من الـكنيسة ، يقـوم المذبح (Altar) ، وهو الطرونوس(٤٣) (Thronos) الذى يسمى ايضا بالفـاثور(٤٤) • ويعلو المذبح صليب(٤٥) • ويرتفع المذبح عما يتلوه بنحو درجة

(٤٣) الطرونوس : لفظة يونانية معناها العرش •

(٤٤) الفاثور : لفظة سريانية معناها المائدة أو المذبح • وقد اضطررنا فى هذا المقال الى كتابة الالفاظ السريانية بحروف عربية ، لخلو المطبعة منها •

(٤٥)

Book of Governors. (Bk. V, Chap. 15; Vol. II, P. 543).



الشكل ــ ٨ ــ مخطط كنيسة على الطقس الكلدانى القديم (عن الخورى سليمان صائغ)

أو درجات • ويدخل اليه من قسم آخر يجاوره المذبح « مصطبة » يقف عليها الكاهن الذى يقرب يسمى « بيت دياقون » وسيأتى بنا شرحه • وامام القربان •

ان « المذبح » و « المصطبة » يسميان معا بقدس الاقداس (قدش قدشى) ، ويفصلهما عن « القنكى » حاجز فيه ستار •

والقنكى ، قسم من الكنيسة يلى المصطبة ، وهو دونها ارتفاعا بدرجة واحدة أو اكثر •

وفي وسط القنكى يتدلى قنـديل من فوق • وكان الشمامسة يقفون عن يمين ويسار القنكى : فالانجيليون(٤٦) منهم ، يقفون من القنديل الى حد قدس الاقداس • والرسائليون(٤٧) منهم ، يقفون من القنديل الى نهاية القنكى •

وللقنكى باب كبير يغلق عليه ، وامام هذا الباب ستار • ونستنتج من بعض النصوص القديمة ايضا وجود باب آخر ، عن يمين البـاب الكبير ، كان يخرج منه قارىء الرسالة ليذهب الى « البيم »(٤٨) •

ويـلى القنكـى القســم الــذى يدعـــى « القســطروم »(٤٩) ، وفيـه يقف الشمامسـة القارئون •

ويتصل بالقسطروم من منتصف نهايته (انظر الشكل ٩) مجاز صغير يسمى « اشقاقون » ويؤدى الى « البيم » وهذا المجاز هو الطريق الذى يسلكه الكهنة والشمامسة ذهابا وايابا أثناء تكميلهم الخدم الطقسية بين القنكى والبيم •

وفــى « البيم » تقــرأ القــراءات التى تعرف بـ « القريان » و « الرسائل » و « الانجيل » وهناك ايضا يتلو الشماس بعض الحـان تسمى فى لغـة الفروض الطقسية « دبيم »(٥٠) •

وفى « البيم » ايضا كان يوضع صليب وكرسى الاسقف •

فهـذه الاقسام الاربعـة من الكنيسة ، التى دعوناهـا بـ « قـدس الاقـداس » و « القنكى » و « القســطروم » و « البيم » ، كانت مخصصـة بالكهنـة والشمامسة دون غيرهـم • ولا يبـاح العلمانيون الدخول فيها •

ولنا ان نقول ان القنكى والقسطروم والاشقاقون والبيم ، كانت كلها ذات مستوى واحد فى الكنائس المشرقيـة القديمة • والثلاثة الاخيرة منهـا كانت مسورة بحاجز حرمة لهـا •

واما ما تبقى من الكنيسة ، فذو مستوى أدنى من الاقسام المذكورة • وهو مخصص بسائر المصلين رجالا ونساء •

ويلاصق القنكـى من الجهــة اليســرى ، « بيت العماذ » ، وهو القسم الذى يتم فيه التعميذ

(٤٦) و (٤٧) الشمامسة فى الكنيسة المشرقيـة على ثلاث درجات : اعلاها الشماس الانجيلى (مشمشانا) فالرسائلى (هوبذيقنا) ، فالقارىء (قاروبا) •

(٤٨) البيم لفظة يونانية الاصل ، تعنى فى طقوس المشارقة قسم الكنيسة الذى تكمل فيـه معظم الصلوات الطقسية •

(٤٩) راجع كتاب الرؤساء (٢ : ٣٤٢ و٥٤٤) ولفظة « قسطروم »يونانية الاصل دخلت الى السريانية •

(٥٠) ان حرف الدال فى هذه اللفظة هو علامة المضاف اليـه فى السريانيـة • اما « بيم » فقـد مر بنـا ذكرهـا •

بحسب طقس الكنيسة • ويدخـل اليـه من باب خـاص به • وفى هـذا البيت « جرن العمـاذ » و « مذبح » صغير لتكميل الرتب الطقسية •

امـا القسـم الذى عن يمين القنكى ، فهـو « بيث دياقون »(٥١) ، وهو بيت صغير تحفظ فيه الاشـياء والاوانى المقدسـة • وله باب يفضى الى القنـكى وباب آخـر للـدخول فـى الاحـوال الاعتيادية • وفى طرف هذا البيت تنور لاعـداد الخبز المقدس •

وتشـير بعض الـكتب القـديمة ، الى ان فى الكنائس المشرقيـة بيتا يسمى « بيت الشـهداء » (بيث سهدى) ، فيه تحفظ ذخائر القديسين •

وحسبما يقتضيه نظام الكنائس المشرقية، يجب ان تكون هـذه الكنائس ذات حوش ومحل للصلاة الطقسـية فى الصيف • وهــذا المحـل يدعـى « بيث صلوثا » أو « باصلوثا » أو « اسطوا » • وهو رواق واسع يصلى فيه الكهنـة والشمامسة ، على حـين ان سـائر المصلـين يحضرون الصـلاة فى الحوش • وتشير بعض الملاحظات الطقسية الى ان الصلاة كانت تقـام ايضا فى الرواق المذكور فى بعض ايام من السنة ، فضلا عن الصيف •

وفى الحوش عادة بئر يستقى منها الماء لحاجات الكنيسة •

* * *

بقى علينا ان نقول ان المخططات ١ و ٧ و ٨ التى نشرناها فى هـذا المقال ، تختلف عن بعضها اختلافا بينا كما يظهر للقارىء • وقد صنعنا مخططا لكنيسة مشرقيـة قديمة ، اتبعنا فى تخطيط اقسامه الوصف الذى ورد فى تضاعيف هذا المقال• ويرى هذا المخطط فى الشكل (٩) •

٨ ــ مشتملات اخرى فى الكنيسة

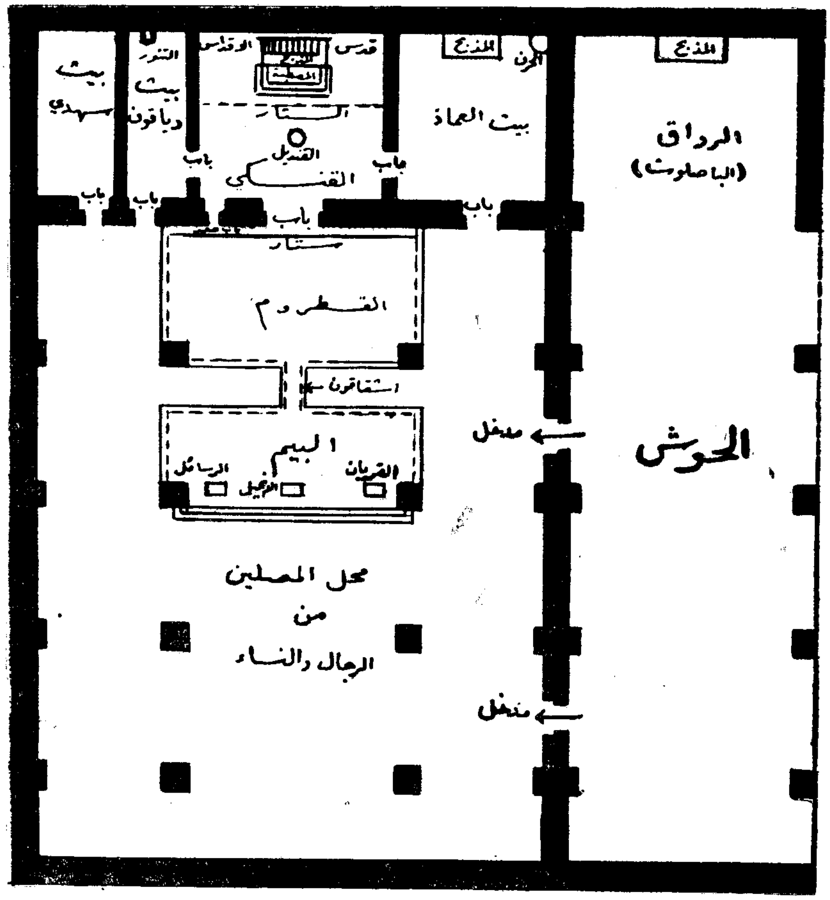
أشرنا غير مرة الى ما فى كتاب الرؤساء لتوما المرجى من فوائد ثمينة تخص موضوعنا هذا • لانه فى ذكره كنيسة دير بيث عابى وما تتألف منـه ، كأنه قد وصف الكنـائس المشرقيـة القديمة فى العراق • فالريازة تتشـابه فى الامور الاسـاسية وتختلف فى الجزئيات والتفريعات التى ينشأ أغلبها عن كبر مساحة الكنيسة او صغرها •

ومما استفدناه من المرجى فى هذا الصدد ، ان فى نحو منتصف المائة السابعـة للميلاد ، كان « مذبح » كنيسة دير بيث عابى ، مجللا بقماش نسج له خاصة فى جزيرة ديرين فى خليج فارس بأمر جرجس الجاثليق(٥٢) •

وفى ايام طيموثاوس الجاثليق (٧٨٠–٨٢٠ م) تلقى هـذا الدير هدية مؤلفـة من ستائر للكنيسة وملابس للكهنـة وغير ذلك • وقـد نسجت فى جيلان والديلم لمار شوحا ليشوع ، الذى كان سابقا فى جملة رهبان بيث عابى •

(٥١) دياقون معناهـا الشماس • وهى لفظـة يونانية نقلت الى السريانية • وبالانكليزية (Deacon) وبيت دياقون يقابله بالانكليزية (Sacristy) •

(٥٢) كتاب الرؤساء (٢ : ١٨٨) •



الشكل ــ ٩ ــ مخطط كنيسة على الطقس الكلداني القديم (لكاتب المقال) •

أما التزايين والزخارف الداخلية لكنيسة بيث عابى ، فلا نعلم من امرها شيئا • ولكن يحتمل كثيرا ان الكنيسة الاولى قد كانت ساذجة للغاية •

ولنا أن نضيف الى ما تقدم ، ان الكنائس امتازت بالناقوس • ولم يكن قديما على نحو ما نراه اليوم بل كان خشبة طويلة يقرعون عليها بخشبة قصيرة اسمها « الوبيل » أو « الابيل » • يقال : نقس بالوبيل الناقوس اذا ضربه • ثم جعلوا بدلا من الخشبة لوحا من نحاس كانوا يقرعون عليه • وهو اليوم الجرس على صورة نصف المخروط (٥٣) •

ومما كانت تزدان به الكنائس ، السرج والمصابيح ، وكانت تصنع من مواد مختلفة • وكل هذا مما لم يغير مر العصور استعماله في الكنائس المختلفة ، قديمها وحديثها •

---

(٥٣) شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية (ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨) •

٩ ـ حال بعض الكنائس الجديدة

ولقد انحى غير واحد من الباحثين فى هـذا الموضوع باللائمة على ما آلت اليه حال الـكنائس المشيدة حديثا فى العراق ، فقال الخورى سليمان صائغ : « ومع ان هندمهـا (يعنى كنائس السريان المشارقة) واقسامها المشتملة على أجمل الرموز بقى محفوظا فى وصف الكنائس القديمة ، كما ذكره بعض قدماء الكهنة وكما نشاهده ماثلا فى بعض بقية الكنائس القديمة ، لسوء الحظ نرى أهل العصر قد تحدوا الغربيين فى هنـدام كنائسنا واضاعوا تلك الرمـوز بحيث انهـم اصبحـوا لا يعرفون معنى للملاحظات والتنبيهـات التى تنص عليهـا الكتب الطقسية(٥٤) » •

وهـذه الـكنائس التى شـيدت فى الازمنـة المتأخرة ، يرى أغلبها فى الموصل وبغداد وغيرهما من بلدان العراق وقراه ، وكذلك فى بعض مدن سورية وايران وتركية وغيرهـا • ولا يتسع امامنا المجـال لوصفهـا ومقايستهـا باخواتهـا الـكنائس القديمة(٥٥) •

---

(٥٤) يزداندوخت (ص ١٨١ ـ ١٨٢) •

(٥٥) من أراد الوقوف على أهـم الاوصـاف للكنائس النسطورية والكلدانية الحديثة ، ليراجع :

Perkins (J.): A Residence of Eight Years in Persia, among the Nestorian Christians (Andover, 1843; P. 177).

Smith and Dwight: Missionary Research in Koordistan and Armenia. (Vol. II, London, 1834; P. 210).

Southgate (H.): Narrative of a Tour through Armenia, Kurdistan, Persia and Mesopotamia. (Vol. II, New York, 1840; P. 235).

Badger (G.P.): The Nestorians and their Rituals. (Vol. I, London, 1852; P. 94 ff.).